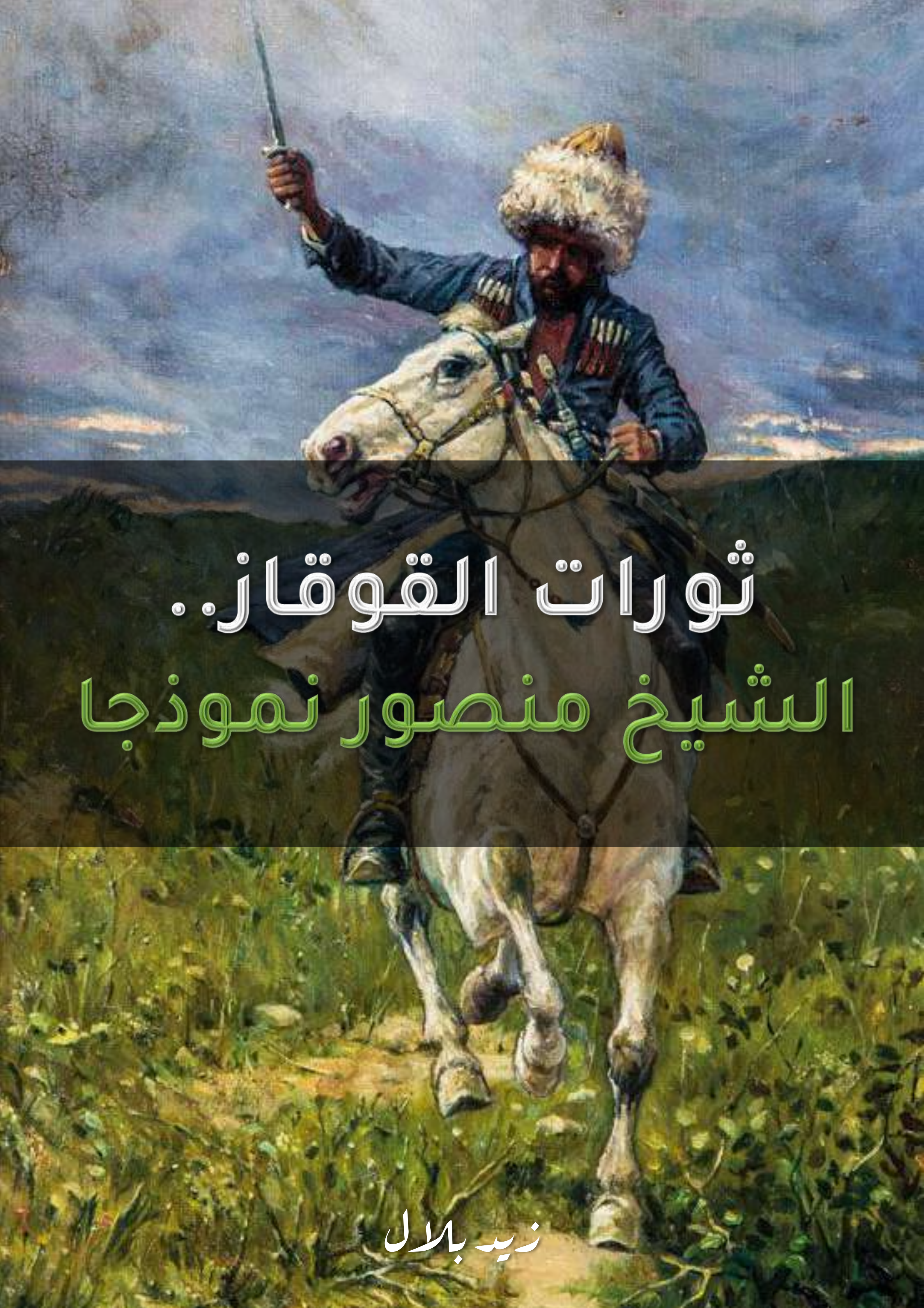

ثورات القوقاز..
الشيخ منصور نموذجا
زيد بلال



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن هذه الأمة المنكوبة لن تقوم لها قائمة ولن ينفض الذئاب عن قصعتها حتى تنفض الغبار عن نفسها وتقاتل عدوها، هكذا بكل بساطة وبلا فلسفة أو تشقيقات كلامية.

يحلو دوما للمنظرين والمثقفين الفذلكة علينا بأننا ضعفاء ولا يمكننا أن نبدأ من القتال، بل لابد من الدعوة وكف الأذى والانحناء للعاصفة حتى تمر، وقد احدودبت ظهورهم من كثرة الانحناء ولا تمر العواصف كما يزعمون، بل تتحول لبرق ورعد قاصف فوق رؤوسنا.

ولذلك أقول أن أكبر مشكلة تواجه الشباب حاليا هي التثبيط والتخذيل وبث روح القعود، فكل الأبواق العلمانية والإسلامية تنادي عليه بتلك العقبة ليل نهار،

فالحجة الأكثر اشتهارًا على ألسنة المشايخ والمفكرين والمثقفين المعاصرين: الأقوى عسكريا منتصر دائما - الضعيف لا يقهر القوي - نحن ضعفاء وهم أقوياء،

النتيجة: لا تنتظركم إلا الهزيمة في كل معركة؛ ولذلك كفوا عنهم ولا تعاندوهم ولا تظهروا مخالفتكم لهم، بل بعضهم بلغ به أن يقول: التمسوا رضاهم أو حتى استجيروا بهم وأقيموا معاهدات حماية وأحلافا مشتركة !!

أو .. اذهب وعيش حياتك وكل واشرب واشتغل وملكش دعوة بحاجة ومش هتغير الكون.. وأخف الضريين وأقل الشرين والجوقة المعروفة.

مع أن كل مقدمة ليست مطلقة، وقد رأينا في سنة الله كيف هزمت أمم مستضعفة حضارات أقوى منها بكل اعتبار، ودونكم سيرة نبيكم وفتوح الصحابة والتابعين لإمبراطوريتي فارس والروم: جيوش لا أول لها من آخر، وفلسفات وعلوم عسكرية وقانونية وسياسات وموارد وأموال بالأطنان، حضارة ممتلئة بكل معنى الكلمة.

ما يفعله العلماء والمثقفون المدجنون هو عملية اختزال تام لكل عوامل الصراع الأخرى وحركة التاريخ، ورؤية مادية محضة لا تقيم أي شأن للمعنويات كالعقيدة وقوة الاحتمال وما تبثه في النفوس والقلوب.

ولما كانت كتب التجارب الثورية من أثرى ما يفيد المقاتل العقائدي؛ أحببت عرض ومضة من صراع القوقاز المسلم مع روسيا القيصرية، فإن أي تجربة ماضية أو حاضرة تقرأ عنها هي بمثابة خبرة مضاعفة تضمها لرصيدك الفكري والواقعي، ومزيد فهم للأرض التي نسير عليها والأقوام الذين نعاشرهم، ومن ثم حسن تأت، وجودة عمل وحركة متوازنة في عمق هذا البحر المتلاطم.

هذه الأبحاث وأمثالها -ولو كانت حتى مجرد جمع أرقام وأحداث بلا تحليل- واجبة القراءة على كل متصد للتغيير أو حتى يبغي الوعي المجرد بحياته وأبنية النظام الذي يحكمه والحركات التي تؤثر فيه وفي كل ما حوله.

فتواريخ الثورات الحديثة والسير الذاتية للقادة والجنرالات والسياسيين والنخب والتراجم والمذكرات وما يدور في أروقة الحكم وما يحدث في داخل الجماعات والعصب والتكوينات والتنظيمات = هي من أكثر الكتب إفادة ويجب عليك الاستكثار منها ما استطعت، وهي تعلمك السياسة عمليا، وتفهمك الواقع جيدا، وبالطبع فيها مزالق ومطبات وعوائق يجب التنبه لها.

ولهذا وغيره أحببت أن أكتب كلمة مختصرة في ثورات القوقاز، يكون مثالا ونموذجا لإسقاطات عدة على واقعنا، فالقيصرية الروسية كانت إمبراطورية قوية ظافرة والقوقاز ضعيف متفرق لا يجمعه جامع وشيوخه منهزمون مخذلون كحالنا الآن، حتى قام فيهم بعض الشرفاء الأئمة وقادوا مقاومة شرسة ضد عدو قوي عات، فلعل تحليل ومضة من تلك التجربة وبسط الكلام عليها يخرج لنا بفوائد لا عد لها، تنير لنا بعض الظلام المسيطر على الواقع، ولذلك سأخلط الكلام بين التاريخ والواقع وتنزيله على المشاهد المعاصرة والتجارب الحاضرة، فكن لبيبا وافهم الإشارة.

كثير من المسلمين قد عرفوا الإمام شامل وبعضهم قرأ عن سيرته وغزواته وتصديه للروس، فلنأخذ الإمام منصور الشيشاني رحمه الله مثالا ونموذجا لثورات القوقاز.

فصل



كانت ثورات القوقاز تقوم على المريد المقاتل، جيوش من الصوفية النقشبندية وغيرها في مواجهة الآلة الروسية الجبارة، الشيخ منصور والملا غازي والملا حمزات والإمام شامل والحجي أذن وعشرات القادة من أمثالهم.

هل نرد جهادهم لصوفيتهم وطرقيتهم؟!

كل متصد للصليب فهو أخونا، برغم كل الخلافات العقدية، كما أن كل مصطف مع أعداء أمتنا = فهو منهم، بلا أي تجن أو رمي بباطل.

كثير من الجماعات لا تقبل الآخرين لاعتبارات في رؤوسهم، ماذا سيفعلون في مكونات الأمة الواسعة الرحيبة واختلافاتها المتباينة؟ كيف سيسوسونهم جميعا؟

المتصوفة منتشرون في الأعاجم بكثرة مرعبة كما في الهند وأفغانستان وباكستان والشيشان وداغستان وأنجوشيا مثلا، عشرات الملايين من المسلمين صوفية، وهم بين أشاعرة وماتريدية، وجل علمائهم من متعصبة الأحناف؟ ما هو خطابنا لهؤلاء، وكيف نحشدهم ونستنفرهم لجهاد أعداء الله، الرابض على أراضينا وأراضيهم من عشرات السنين؟

عد أحد منظري "تنظيم الدولة" وهو أبو عبيدة اللبناني أن من مظاهر انحراف القاعدة أن المجاهدين في شبه القارة الهندية كثير منهم صوفيون ديوبندية! ضيقو الأفق فقط هم من يعتبرون ذلك انحرافا، بل لابد لنا أن نجمع طوائف الأمة على الجهاد ودفع الصائل، ولو كانوا من أهل المعاصي والبدع.

قال أبو مصعب السوري: (من أكبر الأخطاء التي وقعنا فيها؛ أننا حذفنا من اعتبارنا كل الطبقات التي لا تشاركنا أيدولوجيا، والتي كان من الممكن أن يكون لها مساهمة في الثورة)، وقال: (فنحن لو اقتصرنا على نخبة النخبة لخسرنا، ولكن هذه النخبة المنهجية يجب أن تكون بالنسبة لنا كما كان أهل بدر وأهل الشجرة والمهاجرون والأنصار بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام، فمع أن النخبة واجبة في إدارة حرب عصابات = إلا أننا لا يمكن أن نتصور أنه من خلال هذه النخبة، وبهذه النخبة فقط سنحارب).

فالذي تفعله بعض الجماعات من استبعاد عامل الأمة في الصراع = لهو جهل بسنن الصراع وجهل بحقيقته قبل ذلك، فأمة الصليب لن يخرجها إلا أمة مثلها! فنحن تقاتلنا الآن أمتان: أمة الصليب وأمة اليهود، ولذلك لا يصلح أن يجاهدهما صحوة ولا تنظيمات ولا فقاعات صغيرة، وإنما لن يصلح إلا استنفار كامل أمتنا.

فصل

الإمام منصور الشيشاني أو الشيخ منصور (١٧٣٢-١٧٩٤) يعتبر أول زعيم شيشاني قاد المقاومة ضد حملة كاترين الثانية ملكة روسيا القيصرية في القوقاز أواخر القرن الثامن عشر.

كانت قبائل القوقاز قبله مفرقة مشتتة، يلتهمها الروس بسهولة ويسر، إلى أن قام فيهم هذا الشيخ الجنرال بحق، وقام بجولات عديدة محرضا على قتال الروس، فتبوأ إمامة القوقازيين لمدة تسع سنوات، أقض فيها مضاجع الجنرالات الروس وإمبراطورتهم كاترينا.

كان شيخا محاربا، عالما جنرالا، ملا ورئيس قومه، انفصلت عندنا هذه المفردات للأسف، وأصبح الشيخ في جانب والقائد في جانب آخر، فإذا رأيت فقيها هو بالفعل فقيه نحرير تجده غالبا درويشا في السياسة وساذجا في الواقع، وبسهولة ويسر يستطيع السياسي العلماني خداعه، وبالعكس مع كوننا قلما نجد سياسيا شريفا أو مقاتلا قويا أو قائدا كارزميا، لكننا إذا عثرنا على تلك العملة النادرة وجدناه ضعيف العلم بالشرع أو متوسطا في أحسن الأحوال.

والشيخ منصور كان صوفيا على الطريقة النقشبندية، يحفظ القرآن الكريم وعددا كبيرا من الحديث النبوي، وتلقى تعليمه في بخارى، وأصبح خطيبا مفوها، جمع حوله عدة قبائل من شعوب داغستان، والقبارطاي، والنوغاي، بالإضافة إلى الشيشان، وتجمع لديه جيش ضخم، استطاع أن يلحق بالروس هزائم متكررة، هذا الصوفي العظيم لا يمت إليه أحذية الطواغيت الآن من متصوفة مصر والمغرب وغيرهما بأي صلة.

استخدمت الإمبراطورية الروسية وسائل ثابتة في احتلال القوقاز، من أهمها أن يقوم القوزاق وهم حلفاؤهم النصارى من البدو بإقامة حصن أو مخفر في منطقة ما، ثم تهاجر إليه عائلات القوزاق ويتم شحنه بالمقاتلين والعتاد والذخائر والمؤن، ويتوسع شيئا فشيئا حتى يتحول لمدينة كاملة، تقطع طرق القوقازيين وتهددهم دوما، فأقاموا أول حصن أمامي على نهر التيريك، وصار هذا الحصن مدينة جروزني العاصمة الشيشانية فيما بعد، وخلال حكم إيفان الرابع أو إيفان الرهيب في منتصف القرن السادس عشر قام القوزاق ببناء مجموعة من الحصون في شمال داغستان والشيشان، ومع بداية القرن الثامن عشر كانت آلاف الأسر القوزاقية قد تجمعت في

الإقليم، وامتزجت مع القبائل المحلية، وتزاوجوا منهم، وإن احتفظوا بالمسيحية دينا وبالروسية لغة.

فكان القوقازيون يهاجمون هذه الحصون بهجمات خاطفة وغارات باغتة وسريعة، ومن أهم هذه الهجمات التي قام بها الشيخ منصور الهجوم على حصن كازليار أو قيزيل پار، وعندها أرسلت كاترين جيشا ضخما، بقيادة الكولونيل ناجل، استطاع أن يهزم الشيخ في معركة تتار توب في ٣٠ أكتوبر (١٧٨٥م= ١١٩٩هـ) على نهر التيريك، فهزم الشيخ في أول معاركه!

وفي هذا درس عظيم لنا، فمن الأوهام التي سيطرت على العقول أن جيل النصر ينتصر في كل حرب ويربح كل معركة، عكس الجيل الحالي الذي لم يمن إلا بالهزائم، ولم يربح حربا ولا معركة قط، فقد انتصر أهل الإسلام على أهل الصليب في معارك، ثم تلى ذلك هزائم، ثم أعقبه انتصارات أخرى ثم .. إلخ، كما أنه لا وجود لمرحلة تربية ثم مرحلة جهاد، هذا حلم جميل لم يحصل قط، بل هناك صائل عالمي يصول على أمتنا كاملة يحتاج لدفع، وفي أثناء هذا الدفع الطويل الشاق ستتربى الأمة ويخرج منها النوابغ في الإعلام والعسكرية والاجتماع والشرع وكل العلوم والفنون، وسيصيبها إخفاقات وانتصارات، وهزائم وفتوح، هذه سنة الحياة.

-عندما بدأت بوادر الحرب تلوح بين الروس والعثمانيين عام (١٧٨٧م =١٢٠١هـ)، استنجد الأتراك بالشيخ منصور فلبى النداء، وظهر فجأة بين الشراكسة في الغرب، الذين التفوا حوله وقاموا بمهاجمة القوات الروسية من الخلف، وفي الذكرى السنوية لمعركة "تتار توب" هاجم الشيخ ومعه الشراكسة ثلاثة أفواج من قوازق الدون وأبادوهم.

وفي سبتمبر عام (١٧٨٧م= ١٢٠١هـ) هاجم الروس قلعة "أنابا" على ساحل البحر الأسود، فقام الشيخ منصور بالهجوم على الروس من الخلف في منطقة أوبون، وقتل ثلاثة آلاف جندي روسي في هذه المعركة، وعلى إثر هذه الهزيمة عزل الجنرال توكالي، وحل محله الحنرال بيبكوف، وبعد أن بعد القلق يدب في قلوب الروس، أيقنوا أن احتلال "أنابا" لن يتم إلا بهزيمة الشيخ منصور أولا.

ما الذي يحدث الآن في بلاد القوقاز...؟ !

الذي يحدث لو امتدت الثورة وطال الصراع المستمر فإن ذلك كفيل بخلق ثقافة حربية وجيل مقاتل يحملها، إن الصراع يخلق أعداء ذوي شأن كما يقولون، كما أن الصراع إذا طال فإنه يفرز قادته الحقيقيين بسلاسة ويسر، ولذلك فالقضاء على الثورة القوقازية التي يقودها الشيخ "منصور" تمنع من تكوين الثقافة الحربية اللازمة والجيل المقاتل الذي يحملها، والمهدد بانهيار المشروع القيصري بكامله في القوقاز.

ولو نظرت في واقعنا المعاصر ستجد أنه لم تترك الجاهلية الدولية كالأمريكان وأضرابهم أي محاولة بدء تكوين جيل مقاتل، جاهليا كان أو إسلاميا = إلا وأفشلوها.. وأظهر الأمثلة على ذلك:

١ -جيل حرب أكتوبر-بغض النظر عن نتيجة الحرب، فمع كونه جاهليا لا يمت لمقاصد الإسلام من القتال بحال ولا صلة، إلا أنهم تخوفوا على مصالحهم منه، فقام عملاؤهم المصريون بوأد هذه البذرة الجاهلية بسلاسل كامب ديفيد والسلام وملحقاتهما وأخواتهما، ونشأت الأجيال التي لا تعرف عن الحروب والصدامات الأممية إلا اسمها، وضرب الترف المؤسسة العسكرية المصرية، وأضحت: الشركة المساهمة العسكرية المصرية!

٢ -جيل التجربة الأفغانية في جهاد السوفيت (١٩٧٩-١٩٩٢)، أي: مليشيات الأفغان التي بلغت مثلا في جيش حكمتيار وحده المائتي ألف مقاتل (٢٠٠ ألف)، فما بالك بمجموعهم، زرعوا بين الإخوة الأعداء الشقاق، وتم استقطابهم بين عدة دول كالولايات المتحدة وإيران وباكستان، حتى ضاع هذا الجيل وتاه.

٣ -جيل "الأفغان العرب" الذين زادوا عن ٣٠ ألفا من المقاتلين، ومئات الدورات العسكرية والشرعية والاستراتيجية، حتى اعتبرهم أبو مصعب السوري قد أتخموا من فرط الدورات العسكرية؛ قامت قوانين الإرهاب، وإغلاق الملاذات الآمنة والهوامش الإقليمية، وسياسة تجفيف المنابع، والتحالفات الأمنية = بالتكفل بهذا الجيل وزجه في أخاديد السجون والمعتقلات والإعدامات حتى تلاشي أو كاد!

فهذه سنة كونية مستمرة، لن يترك خصم لخصمه الفرصة ليتحول لتهديد قوي يمنعه من مصالحه، هذه بديهية من بديهيات الصراع.

فصل

لم يستفد الأتراك من ثورات القوقازيين المتواصلة أي استفادة، بل تركوا لمصيرهم المحتوم في مواجهة الآلة العسكرية الروسية الجبارة، مع أننا لو حسبناها بمنطق مادي محض فإن القوقازيين هم حائط الصد الأخير أمام الروس ومنع التهام أراضي العثمانيين، ولو عاملوهم كما عامل الروس القوزاق؛ لأوقفوا الزحف الروسي نحوهم، أو أخروه طويلا على أقل تقدير.

ماذا عليهم لو وفروا لهم عددا من جنرالات الجيش العثماني وضباطه، مع كميات وفيرة من الذخيرة والبارود والمؤن والمال، هذا لا يكلف الخزينة التركية شيئا أصلا.

بل إنهم كانوا يعاملون القوقازيين باحتقار رهيب وبجفاء وعجرفة كما حصل مرارا، ودونك ما حصل بين الشيخ منصور وبطال باشا الجنرال التركي في ميناء "أنابا"؛ فقد قام بطال باشا بمعاملة الشيخ منصور ومتطوعيه من الشيشان والشراكسة بجفاء وعجرفة عندما قدموا للترحيب به، ونتيجة لهذه المعاملة غير اللائقة غادر الشيخ منصور ومتطوعوه آنابا بعد أن أرسلوا شكوى إلى السلطان العثماني.

ونتيجة لإلحاح السلطان العثماني والشراكسة، عاد الشيخ منصور إلى أنابا للدفاع عنها، وفشل الجنرال الروسي بيبكوف في احتلال أنابا، وتم استبداله بالجنرال بيلمان، وبتنسيق مع الأتراك خرج الشيخ منصور من حصن آنابا ومعه مقاتلوه لمهاجمة قوات الجنرال جيرمانيين أحد مساعدي بيلمان، وجرت معركة كوبيروسكوي، ولم يستطع الروس دخول أنابا إلا بعد الاتفاق مع القائد التركي الخائن على ترك أنابا مع أتباعه، وهو ما حصل فعلا، وتركوا الشيخ منصور ورجاله وحدهم في الدفاع عنها حتى سقطت في النهاية.

فصل

خسر الإمام منصور الشيشاني أول ثلاث معارك مع الروس آخرها لما هاجمت قوات الكولونيل بييري قرية الشيخ نفسها "الدي"، نعم قُتل الكولونيل ومعه سبعة ضباط آخرين، إضافة إلى ستمائة جندي، وغنم الشيخ وجنوده الأسلحة التي كانت بحوزة الروس، ومن ضمنها اثنا عشر مدفعة، لكن قرية الشيخ تمت تسويتها بالأرض وقُتل من الشيشانيين عدد كبير جدا .. فلا تعرف هل تحسبها خسارة للشيخ أم هزيمة منكرة للروس! الغريب في الأمر بعد ذلك أن الشيخ قد أكمل مسيرته وبدأ يحشد قواته مرة أخرى ونقل قاعدة العمليات لمكان آخر!

ولسائل أن يسأل: قد جربتم كثيرا نفس الطريق وهو طريق الجهاد والقتال العبثي للأنظمة وثبت فشله، فالواجب عليكم أن تراجعوا أنفسكم، وتغيروا مسلككم، فيقول قائل: الطريق لتغيير الواقع هو التربية، وقيام جيل كامل من المربين بتهيئة الأمة، ونشر التدين في جنبات المجتمع بالأربطة العلمية والمراكز البحثية وغيرها، ثم نغير الحكم إلى حكم إسلامي؟ وآخر يزعم: لماذا لا يفعل منصور مثل بعض قبائل القبارديي والنوغاي التي سالمت القيصرة وحافظت على حياة أبنائها من القتل وقراها من الدمار.

لماذا لا نسالم الأنظمة ونعمل ضمن المتاح ولا نبحث عن المفقود، بل ونشارك سياسيا في الانتخابات وندخل البرلمان، ونعمل بهدوء من الداخل في تغيير المجتمع...؟

فنقول في جواب هؤلاء ومنطقهم القديم الحديث: طريقة التغيير هي طريقة سننية واحدة يطرقها المسلم والكافر، لكن قد تخطئ وتفشل لا لخطأ المنهج، وإنما لضعف موضوعيته، فما هي المناهج وسبل التغيير التي مارسها أهل الإسلام للخروج من التيه فثبت خطؤها وتبين عوارها، حتى تطرحوا هذه الطريقة العجيبة؟!

هل يترككم الطاغوت تربون جيلا كاملا على مفاهيم الإسلام الخاصة، وتنشرون التدين في المجتمع، وتقوضون بنيان دولته، وتمسحون مفاهيمه التي يبثها في الناس، هكذا بكل سهولة وسلاسة ويسر، ثم بعد ذلك تزيلون حكم القوانين والجاهلية وتقيمون حكم الإسلام، أم سيقوم وحده، أم ماذا؟! هذه مخادعة مفضوحة غير واقعية، وإن كانت براقة جميلة تجذب الأنظار.

حاول أهل الإسلام إخراج الصليبيين لمدة مائتين من السنين، وعشرات الملايين من القتلى والجرحى والمشردين، ثم نجحوا في نهاية الأمر بنفس المنهج ونفس آلية التحرك، ولم يكونوا يفشلون لخطأ الطريق، بل لضعف موضوعيته، وحاول أهل الصليب احتلال بلاد الإسلام كاملة لعدة قرون، وإخضاعها بالقوة والقهر ومنها فترة الحروب الصليبية وما بعدها حروب الاستعمار، ثم نجحوا

في نهاية الأمر بنفس المنهج والية التحرك، ولم يكونوا يفشلون لخطة الطريق، بل لضعف موضوعيته.

لو فشلت الثورة السورية مثلا أو أي ثورة أخرى؛ فبسبب الخيانات والتقصير لا لمنطق الثورة نفسه، قد تفشل العملية الجراحية بسبب ضعف الطبيب العلمي أو تقصيره العملي، لا بسبب منطق الطب والجراحة نفسه.

لابد أن يعرف الإسلاميون ذواتهم جيدا، من نحن ومن هم، من داخل الهوية ومن خارجها من الأعداء والنخب الحاكمة، ثم أن يعرفوا الغاية والمقصد، بشكل واضح ظاهر لا لبس فيه، ثم يسلكوا الطريق الوحيد والحقيقي الموصل لتحقيق الغاية وهو القتال والمقاومة والثورة الجذرية، لا الوهمي الخيالي كالانتخابات والمشاركة السياسية، فإن استقام السبيل؛ فما عليهم إلا تكرار المحاولة حتى يفتح الباب.

التربية مرحلة موافقة للفعل لا سابقة له، وهذا منطق الحياة حتى، فأنت لا تمنع ابنك من الاختلاط بالناس والذهاب للمدرسة حتى تربية، بل تربيه خلال الاختلاط بهم والذهاب للمدرسة، الأمة لم تتوقف عن الجهاد لكي تنشئ جيلا تربويا كامل الصفات، بل جاهدت وقاتلت قتال دفع وطلب، وهي في ظل هذا تربي وتعلم ويخرج منها الصالح والطالح، هذا هو منطق الأشياء وسنن الكون.

مفتاح المشاركة السياسية بيد النظام لأنه نظام احتلال لكنه عربي الجنسية فقط، وليس من طريق في مواجهته إلا: الوعي والمقاومة، لا الكفاح الدستوري والمشاركة السياسية ... إلخ، فهذا وهم وخرافة، ولم تتحرر أمة أبدا من الاحتلال بمثل هذه الطرق!

ولعلمك قد قضمت قوات الإمبراطورة القبائل العميلة الخائنة وأراضيها بعد ذلك ولم يتركوهم في حالهم، ثم وبعد قرنين وبصورة أخرى لم يشفع للإخوان دخول البرلمانات ولا المشاركة السياسية في شيء وأقامت لهم الأنظمة المذابح المروعة والاعتقالات الطويلة ولم ترحمهم.



فصل: نهاية ثورة الشيخ منصور الشيشاني

خلال المعارك الدائرة بينه وبين الروس سقط الشيخ منصور جريحا، فأسره الروس، ونقلوه إلى الإمبراطورة كاترينا، التي رغبت في رؤية هذا الشيشاني، الذي كان مصدر إزعاج دائم لها منذ عام (١١٩٩هـ= ١٧٨٥م)، ثم أودع السجن في شليسبرغ، ويبدو أن هذا الأسد الهادر لم يستطع تحمل مرارة السجن فقُتل هناك، بعد أن قَتل الجندي المسئول عن حراسته، وبذلك سقط الشيخ منصور الشيشاني شهيدا في (رمضان ١٢٠٨ هـ= ١٣ أبريل ١٧٩٤م) بعد تسع سنوات من الجهاد المتواصل.

بمنطق المخذلين المعاصرين، فإن هذا الرجل وسيرته بل وحتى سجنه كان حالة من الجنون المتواصل، رجل ضعيف بجنود قليلين وبأسلحة متخلفة وحتى هذه الأسلحة المتخلفة بلا ذخائر كافية، ويتحدى إمبراطورية بتلك القوة والظفر والاتساع، هذا شيء خارج عن العقل، لكن هذا على مر العصور وتطاول الزمان كان منطق الأحرار وليس العبيد، منطق الشرفاء المكرمين لا الخونة الوضيعين.

أما في عصرنا عصر السفلة الغامضة وعلو التحوت على الوعول فإن مثقفينا وعلمائنا يحقنون الناس حقنا بالتثبيط والتخذيل والخوف والخيانة، فإذا أهين رسولنا فادفع بالتي هي أحسن، وإذا اغتصبك الضابط في معسكرات التعذيب فلا تقتله لأن قتله محرم، وإذا أشعلوا النار في قرآننا فهلم نريهم حسن أخلاقنا!! بئست الأخلاق أيها العبيد المناكيد، ففي كل موطن تخذلون المسلمين عن حقوقهم وتلبسون جبنكم لبوس الحكمة والدعوة والأناة والحلم، الحقيقة بكل بساطة وباختصار شديد أنكم جبناء لا غير.

هؤلاء المخذلون لو كانوا مع المعتقلين في جوانتانامو أو غيرها من معسكرات التعذيب والاعتقال = لثبطوهم تثبيطا كبيرا، بمذهبهم هذا، فقضية إلقاء المصحف على الأرض وإهانة القرآن معروفة، ذكرها غير واحد من المعتقلين هناك كوليد الحاج وعبد الرحيم دوست الأفغاني، وغيرهما، وكان رد فعل المعتقلين على ذلك عنيفا جدا، يقول صاحب "القيود المحطمة": (كان الأسرى يقومون بالمظاهرات والإضراب عن الطعام في موارد كثيرة، ولكن في مسألة إهانة القرآن قام المخيم كله بالمظاهرات بكلمة واحدة وصوت واحد)، ويقول: (صب الماء والبول والبصاق على العساكر،

والإضرابات، والكفاح مع الغازات الدامعة، والضرب والتعذيب وغيرها ... أمور تمثل جرأة الأسرى وشجاعتهم. وفقني الله تعالى وأخي الأستاذ بدر الزمان في مظاهرات الدفاع عن القرآن الكريم حينما أهانوه، أن نخرج على عساكر الشغب الذين يبلغ عددهم إلى اثني عشر جنديا مثل الجاموس، فصرع كل منا واحدا واحدا)، وذكر وليد الحاج في حلقاته مع أحمد منصور التي بثتها "الجزيرة" أنه كان من الذين وضعوا الغائط -أعزكم الله- في كأس ورماه على جنرال كبير، أثناء زيارته لجوانتانامو، احتجاجا على إهانة القرآن الكريم، وسجن بعدها في الانفرادي شهرا.

أما مذهب: ده هيضربوكم أكتر، دول أقوى منكم، هتعترض على إهانة المصحف هيزيدوا في الإهانة، هتقتل ضابط هيقتلوا عشر مسجونين ولا ماية، اقعد مكانك، متعملش حاجة إلخ = فلو كان هناك من يحمله لثبطوا الهمم، وأوهنوا العزائم، وأماتوا الضمائر الحية، وقتلوا الفطر المستقية.

خاتمة

ربما نحن لا نملك وجودا سياسيا على أرض الواقع متمثلا في دار الإسلام أو حتى إمارة أو دولة، لكن بعد حقبة التية التي عاشها المسلمون منذ سقوط الخلافة وتفتت الوحدة السياسية الإسلامية؛ بما يمثله ذلك من انهيار كافة العقد المنظوم، قامت كثير من حركات الإسلام لاستعادة هذا الوجود وتمثله بصورة مصغرة: "جماعت إسلامي" للمودودي في القارة الهندية و"الإخوان المسلمون" للبنا في بلاد العرب، وغيرهم ممن حذا حذوهم، كل يطور نظريته الخاصة في التعامل مع الواقع الجديد، منشئا سرديته الكبرى ورؤيته الكونية ومنهجه ومعالم وجوده.

إن اكتشاف وضع جديد هو جزء من وظيفة الفكر السياسي، وللأسف فقد أخفق الفكر السياسي الإسلامي السائد الذي يتبناه جمهرة المعاصرين؛ بسبب تسميمه وتطعيمه بالنظريات القومية أو الغربية وروحه المعلمنة والمؤدلجة .

وعدا قلة معزولة من حركات الجهاد في الهند والقوقاز وخراسان وشمال ووسط أفريقيا كانت ردة فعل المسلمين على العدوان الغربي هزيلة في أحسن الأحوال أو معدومة في أكثرها، ولم تكن لدى أكثر هذه الحركات نظرية سياسية تفهمهم واقعهم وتضع أيديهم على مرتكزات الحركة ومعاقدها الأساسية.

وقد قال صاحب "موجز تاريخ مصر في الحقبة العلمانية" (١٨٠٩- ١٩٨٦) :

(لم يطور المسلمون فكرا لمواجهة المرحلة، واقتصرت أساليبهم على معالجات جزئية (الوهابية)، أو على المقاومة المستميتة ضد الهجمة الغربية (السنوسية، الجهاد الإسلامي في الجزائر، عبد الكريم الخطابي، الشيخ شامل في القوقاز، ساموري غي غرب أفريقيا، أحمد بن ابراهيم في شرق أفريقي)

وقد أثبتت أحداث التاريخ أن حركة مقاومة قامت لمجرد المقاومة لن يكتب لها الاستمرار)!

وهذا ما فقدته ثورات القوقاز، وما زلنا نفقده حتى الآن.